الفصل الثالث

موقف الفلسفة الإلحادية المعاصرة بعد إثبات غيبيات المادة فى العلم التجريبى

obeikandl.com

obeikandl.com

بين المادة والعقل:

أخذ العلم التجريبى أخيراً - وكما تبين لنا فيما سبق - يدفع المفكرين إلى تخوم العقل والروح...

يقول الأستاذ أرثر كوستلر:

(إن افتقار النيوترون إلى الخصائص الفيزيائية العيانية - فضلا عن طبيعتها الأثرية - كل هذا شجع التفكير النظرى إلى الإمام بشأن إمكان وجود جزيئات أخرى تكشف لنا عن الحلقة المفقودة بين المادة والعقل).

وهكذا نجد عالم الفلك المرموق: ف. ا. فيروسوف يفترض أن العقل كان كيانا شاملا كليا، أو تفاعلا من نفس المرتبة، مثل الكهرباء أو الجاذبية، وأنه لابد من وجود معامل للتحول يماثل معادلة أينشتين الشهيرة: ط = (ك س٢).، ومن ثم فإن "مادة العقل" قد تعادل كيانات أخرى فى العالم الفيزيائى.

وذهب إلى أكثر من ذلك حين افترض إمكان وجود جزيئات أولية من "مادة العقل" اقترح تسميتها ذرات عقلية ذات خصائص تشبه إلى حد ما خصائص النيوترون)[1].

ويرى برتراند راسل هذا الرأى الأخير مؤكدا أن الحوادث تبدو مادية إذا نظرنا إليها من زاوية معينة.

وعقلية إذا نظرنا إليها من زاوية أخرى.

أما إذا كان المرء من دعاة الفلسفة الازدواجية فإنه يقول بأن العقل والمادة شيئان مختلفان تماما.

---

(١) العلم والظواهر الخارقة ص ١٠.

مع العلم بأنه قد تكون ثمة علاقة بين الاثنين عن طريق روابط سببية، أو قد يكون الاثنان منفصلين بشكل واضح، إلا أنها متواقتتان كتواقت ساعتين مختلفتين.

ويؤدى بنا كل هذا إلى وجهات نظر خمس – اثنتان منها ثنائيتان وثلاث وحدانية هى المادية والمثالية والوحدانية المحايدة.

وغنى عن القول أن كلا من هذه المواقف الخمسة قد وجد من يدافع عنه فى حين أو فى أخر. وظنى أنه بالإمكان مع شئ من العناية، أن يصار إلى تصنيف جميع الفلاسفة فى إحدى هذه المدارس الخمس – وإن كان أكثرهم يعترض على ذلك نظرا للاختلافات الدقيقة التى تميزهم عن جميع المفكرين الآخرين...

وإذا نحن نظرنا الآن – إلى المعالجة العلمية لمشكلة العقل – نلاحظ أنه يجب على الموقف المادى أن ينظر إلى العقل على أنه آلة شديدة التعقيد، ويقر أن أى آلة معقدة إلى الحد المطلوب قادرة على التفكير.

فلنتحر اذن هذه الفرضية فى الآلات المفكرة.

ربما كان أكثر العوامل مغزى فى تطورات الإنسان الأخيرة ظهور أولى الآلات المفكرة الجيدة، لقد صممت هذه الآلات للقيام بالعمليات الحاسبة المعقدة إلا أنها وصلت إلى مرحلة عدت معها أكثر بكثيرا من مجرد آلات حاسبة.

وهذه الآلات الآن تهيأ لآلاف المهمات التى تفوق أعز أمانى الذين قاموا بتصميمها. من الصعب علينا أن ننكر أن كثيرًا من هذه المهام يمكن أن يسمى تفكيرا وعلى مستوى رفيع، حين يقوم بها بنو البشر.

إذا كان لابد من أساس عقلانى لتفوقنا على الآلات فيجب أن يستند إلى إمكاننا القيام بتصرفات معينة ليس بمستطاع الآلات أن تقوم بها، ولدينا فى الوقت الحاضر على الأقل، متسع كبير لهذا الأدعاء.

وهذا يترك لنا كلية مجال الحدس والتبصر والتكهن الملهم.

وللكائنات البشرية القدرة على حل المشاكل بواسطة عمليات مختصرة لا يستطيعون تفسير طبيعتها.

إن إمكان تعليم الآلات هذا الطراز من التكهن أمر فيه جدل.

أما هل هذه المرحلة ممكنة البلوغ فأمر يجب ترك باب البحث مفتوحا فيه.. هذه هى الحقائق فما هو الاستنتاج الفلسفى الذى يمكن لنا استخلاصه منها؟

الإمكانية الأولى هى القول بأننا فى الواقع نختلف اختلافا أساسيا عن الآلات)[1].

غيبية مفهوم المادة عند الفيلسوف الملحد المعاصر: برترا ندرسل

يقول الفيلسوف الملحد[2] معبرا عن زوال المفهوم المادى للمادة:

(أخذت المادة تشف تدريجيا كقطة تشيشاير حتى لم يبق منها إلا الابتسامة الناجمة فيما يبدو من الضحك على من لا يزالون يظنون أنها موجودة).

ويقول:

(أصبح دارسو علم الطبيعة مثاليين. واصبح كثير من علماء النفس على حافة المادية).

ويقول

---

(١) الفيلسوف والعلم ص ٣١٤ – ٣٢٤.

(٢) يقول رسل فى مقدمة كتابه "فلسفتى كيف تطورت ص ٤" فيما يخص بالدين فقد انتهى بى الأمر إلى أن كفرت أولا بحرية الإرادة، ثم بخلود الروح، وأخيرا بالله). – وهذا الاعتراف يكفى لأن نحكم على مضمونه بأنه – على أقل تقدير – "لا يصح الاصغاء إليه" لا لشئ إلا لأنه صادر عنه بغير إرادته بحكم كفره بحرية الإرادة فهو مقسور إليه" ، وما هى القوة التى قسرته؟ ليست هى الروح، أو الله، لأنهما غير واردين بحكم كفره بهما، وما عدا ذلك؟ نحن لا نعلم – على أقل تقدير – شيئا عمن يتحدث إلينا هذا الحديث: إنه ليس هو رسل، وليس هو الروح، وليس هو الشيطان فمن القائل؟ وإلى من نستمع؟
وإلى من نصغى؟ إلى مضغة اللحم والدم والإفرازات؟ أم إلى الكترونات ونيوترونات هى التى – فى اصطلاح العلم – تتمتع بالحرية؟ وما القيمة الفلسفية لما تقول فى ظل هذه الاحتمالات؟؟

والحقيقة بالطبع أن العقل والمادة كليهما وهم وهو ما يكتشفه:

علماء الطبيعة بدراسة المادة ويكتشفه علماء النفس بدراسة العقل)[1].

ثم يقرر رسل أن عالم المادة الذى يعترف به علم الطبيعة الحديث أصبح شيئا أخر يختلف عن عالم المادة كما تدركه حواسنا.

وأنه أى عالم المادة فى الفيزيقا الحديثة يدرك بالاستنتاج.

وأنه من ثم واقع تحت الشك..

يقول رسل:

(علم الطبيعة وعلم وظائف الأعضاء فيما بينهما يؤكدان لنا أن الكرسى القائم هناك مستقلا عن إبصارى شئ لا يشبه مطلقا ما تصورته.

بل هو رقصة جنونية ترقصها بلايين الكهربيات تحت تأثير بلايين التحولات الكمية.

وعلاقتى بهذا الشئ غير مباشرة ولا تتأتى معرفتها إلا بالاستنتاج.

فهى توجب أن نميز بين العالم المادى لعلم الطبيعة والعالم المادى المتمثل فى خبرتنا اليومية.

فأما العالم المادى لعلم الطبيعة فهو موجود مستقل عن حياتى العقلية بفرض صحة علم الطبيعة. أما العالم المادى فى خبرتنا اليومية فهو على العكس جزء من حياتى العقلية.

ومن ناحية أخرى فإن خبرة رؤية الكرسى ليست بالخبرة التى استطيع أن استبعدها بالتعليل فقد حدثت لى هذه الخبرة بكل تأكيد حتى ولو كنت أحلم.

أما كرسى علم الطبيعة فإنه وإن كان مستقلا عن حياتى العقلية إلا أنه ربما كان

---

(١) العقل والمادة ١٨٩.

obeikandi.com

غير موجود. إذ يكون غير موجود إن كنت أحلم، وربما لم يكن موجودا حتى وأنا متيقظ، إذ كانت هناك مهاو للخطأ فى بعض أنواع الاستنتاج أنا معرض لها وإن لم يكن عليها دليل)[1].

ويأخذ رسل فى تحليله للمادة، وقصرها على "سلسلة من الوقائع".

فيقول:

(كل ما أعلمه عن المادة هو ما يمكننى استنتاجه بمساعدة بعض المسلمات المجردة من الصفات المنطقية المحضة، لتحيزها الزمانى المكانى، وهذه لا تدلنى لأول وهلة على أى شئ كائنا ما كان عن خصائصها الأخرى. فوق هذا، فأن الدواعى التى تمنعنى من الاعتراف بتصور الذات فى حالة العقل هى بعينها الدواعى التى تمنعنى من الاعتراف بتصور الجوهر فى حالة المادة. لقد أنزلنا عقل ديكارت إلى سلسلة من الوقائع، وهذا ما يجب أن نفعله بجسمه أيضا، فإن قطعة المادة سلسلة وقائع تربط فيما بينها قوانين طبيعية معينة.

وهى قوانين تقريبية وغير دقيقة.

والشخصية التى تحتفظ بها الجزيئات المادية فى علم الطبيعة العتيق تختفى فى علم الطبيعة الكمية الحديث.

ولكن حتى قبل ظهور عالم الطبيعة الكمية، كانت الجزيئات فكرة بالية لأنها كانت تؤدى إلى فكرة الجوهر.

وحتى من أيام ذرة "رذر فورد، بوهر" ظل من الممكن التمسك بهذه لأن ذرة رذ وفورد بوهر تتكون من عدد معين من الكهيربات والبروتونات.

وكانت الكهيربات تتصرف كالبراغيث تزحف حينا ثم تقفز، والكهرب لا يزال يمكن التعرف عليه بعد قفزاته على أنه الكهرب نفسه الذى كان يزحف من قبل ولكن الذرة للأسف قد شقيت بتحطيم الذرة.

---

(١) العقل والمادة ١٩٧.

وكل ما أصبحنا نعلمه عنها حتى على فرض أكثر الفروض تفاؤلا هو أنهاكم من الطاقة تخضع لمختلف التقلبات المفاجئة ولا سبيل إلى دليل إلا على هذه التقلبات).

ويبين رسل أنه فى ظل الفيزيقا الحديثة أصبح من المستحيل معرفة شئ عن الذرة فى حالة السكون.

وكل ما نعرفة عنها الآن هو عنها فى حالة التقلب.

يقول:

(كنا فى الأيام السعيدة التى شهدت طفولة بوهر نفترض أننا نعلم ما يجرى فى لحظات السكون، فقد كانت هناك كهيربات تدور حول النواة كما تدور الكواكب حول الشمس، أما الآن فقد وجب علينا أن نعترف بالجهل التام المطلق الذى لا استئصال له أبد الدهر بما تفعله الذرة فى لحظاتها الساكنة. لكأنها مسكونة بطائفة من المراسلين الصحفيين الذ ين لا يعتقدون أن الخبر يستحق أن يذكر إلا أن يكون ثورة أو انقلابا، فيظل ما يحدث فى غير زمن الثورات مغلقا فى الأستار والأسرار، وعلى هذا الأساس اختفت تماما فكرة "النفسية"[1].

يقصد الشئ نفسه، أو الشئ فى ذاته الثابت بلا تغير.

ويدلل على ذلك فيقول:

(الواقع أن أصغر قطعة من الكرسى تفقد شخصيتها فى ما يقرب من جزء من مائة ألف جزء من الثانية).

وإذا كان هذا هو جهلنا بالمادة عموما، فإن رسل يقرر أن جهلنا بمخ الإنسان أشد، يقول: (إننا لم نتعود بعد الكلام عن المخ الإنسانى بدقة لغة علم الطبيعة والكيمياء وأهم ما يتعلق من أسرار هذه النظرية بمشكلتنا هو ما تبديه لنا من قلة ما نعرفه عن المادة ولاسيما مخ الإنسان.

---

(١) أين إذن تصورات ابن سينا عن إعادة المعدوم بعينه واستحالته إعادة الجسد نفسه؟ أليس دمار عينية الجسد يجرى فى كل لحظة، ويجرى الآن؟ فما خصوصية الروح إذن بالبعث؟

فما يزال بعض علماء وظائف الأعضاء يتخيلون أنهم قادرون على رؤية الأنسجة المخية خلال المجهر. وهذا ولاشك وهم متفائل فإنك حين تنظر إلى كرسى لا ترى التحولات الكمية بل تحصل على خبرة ذات اتصال عِلّى طويل محكم بالكرسى المادى اتصال ينتقل خلال الموجات الضوئية وحزم الأشعة ومخروط الضوء والعصب البصرى إلى المخ.

وما يصدق هنا يصدق على المخ الذى يعتقد عالم وظائف الأعضاء أنه يراه، فإن لديه خبرة لها اتصال عِلّى بعيد بالمخ الذى يظن أنه يراه، ولكن ما يستطيع أن يعلمه بصدد هذا المخ لا يعدو عناصر تكوينه التى ستطبع فى حسه البصرى، أما عن الخصائص الأخرى غير خصائص التركيب فلا سبيل إلى معرفتها).

وهنا يود رسل أن يمحو الفصل التام بين كل من المادة والعقل وأن يوحد بينهما فيما يسميه "سلسة أحداث". يقول:

(أحب أن اقترح نظرية: فقد اتفقنا على أن العقل والمادة كليهما سلاسل أحداث، واتفقنا كذلك أننا لا نعلم شيئا عن الأحداث التى تكون المادة إلا من كيانها الزمانى المكانى، والذى أقترحه هو أن الأحداث التى تكون المخ الحى هى نفسها التى تكون العقل المناظر له...).

ثم يقول:

(فإذا صح قولى فالخلاف بين العقل والمخ لا يكون فى المادة الخام التى صنعها منها، ولكن يكون فى طريقة تجميعها، فالعقل وقطعة المادة يتشابهان فى أنهما مجموعات أحداث أو على الأصح سلاسل مجموعات أحداث).

ثم يحاول أن يزيد نظرته وضوحا، فيقول:

(إن الاختلاف بين المخ والعقل ليس اختلافا فى الكيف، ولكنه اختلاف فى التصنيف يشبه الاختلاف بين تصنيف الناس تصنيفا جغرافيا، وتصنيفهم حسب الحروف الأبجدية، وكلا التصنيفين معمول به فى دليل البريد، فالناس فى هذا التصنيف هم الناس فى ذلك ولكن السياق يختلف.

وإذا صحت هذه النظرية فلا مهرب من بعض أنواع الاتصال بين العقل والمخ، فلابد مثلا أن يحدث فى المخ بعض التعديل المادى بما يقابل الذاكرة، ولابد أن تتصل الحياة العقلية بالخصائص المادية للأنسجة المخية، والواقع أن القضايا المادية والنفسية سينظر إليها، لو أن لنا مزيدا من المعرفة، على أنها مجرد اختلاف فى طريقة النص على مضمون واحد. وهكذا تنكمش المسألة القديمة فى اعتماد العقل على المخ أو المخ على العقل، حتى تصير مجرد راحة لغوية، فيريحنا أن نرى العقل معتمدا على المخ حيث يزيد علمنا بالمخ،على علمنا العقل، ويريحنا أن نرى المخ معتمدا على العقل حيث يزيد علمنا بالعقل على علمنا بالمخ.

وفى كل من الحالتين تظل الحقائق الجوهرية هى هى، ويظل الاختلاف اختلافا فى درجة علمنا ولا زيادة.

ولا أظن إن صح ما تقدم أن نطلق القول إطلاقا بأنه لا وجود لعقل غير مجسد، فمثلا هذا اللامتجسد قد يوجد، إذا اجتمعت أحداث بحسب قوانين السيكولوجيا، ولا يبدو أن ثمة سببا تلقائيا قبليا يمنع حدوث العكس، وكل ما يمكننا أن نقوله هو أنه لا يوجد شاهد تجريبى عليه، ولا حق لنا فى أن نزيد)[1].

ويأخذ رسل بعد ذلك فى تلخيص نظريته هذه فى نقاط أهمها:

أولا: أن العالم مكون من أحداث لا من أشياء ذوات حالات تختلف، أو على الأصح أن كل مالنا من الحق وصف العالم به يمكن أن ينص عليه على افتراض أن هناك أحداثا لا أشياء، فالأشياء، بمعزل عن الأحداث، فرض لا ضرورة له.

وثانيا: إن موضوعات الحس كما نحسها مباشرة أجزاء من عقولنا، وليس ما نراه هو العالم المادى ولا بعضه، وهذا أيضا قال به من قبل بركلى[2]، وأيده فيه هيوم، وإن اختلفت الحجج.

---

(١) العقل والمادة ص ٢٠٠ إلى ص ٢٠٥ وانظر فلسفة برتراند رسل للدكتور محمد مهران ص ٩٥ – ٩٦.

(٢) بيشوب بركلى ١٦٨٥ – ١٧٥٣ فيلسوف ايرلندى يرى الوجود هو الإدراك.

ثالثا: ينبغى أن اعترف بأنه لا يوجد شئ يسمى عالم المادة متميز عن خبراتى.

رابعا: أن هناك نوعين من المكان.

خامسا: أن قطعة من المادة هى فى حقيقتها مجموعة أحداث ترتبط بقوانين عليه هى القوانين العلية الطبيعية.

بينما العقل مجموعة احداث ترتبط بقوانين عليه هى القوانين العلية النفسية.

وإذا فلا يصح وصف حادثة ما بأنها عقلية أو بأنها مادية لصفة فى كيانها، بل توصف بهذا أو بذلك حسب سياقها العلى، فإنه من الممكن كل الإمكان للحادثة أن تنسق فى كلا السياقين العقليين، السياق الذى تختص به الطبيعة، والسياق الذى تختص به السيكولوجيا، وفى هذه الحالة تكون الحادثة عقلية ومادية فى وقت معا...

ويحسب رسل أن هذه النظرية قد ازالت الغموض فيقول:

(أهم ما يقال فى صالح هذه النظرية التى أدعو إليها أنها تزيل غموضا، والغموض على الدوام يضايق.. لقد ظلت علاقة العقل بالمادة تحير الناس ردحا طويلا من الزمن فإذا صح رأيى فلا حيرة فى أمرهما بعد الآن...)[1].

وأقول:

مع أن ما يعنينا نحن من فلسفة رسل هذه – وهو على قمة الإلحاد المعاصر – أنها تحطم المفهوم المادى للمادة، إلا إننا لا نرى أن نظريته أزالت الغموض فى العلاقة بين المادة والعقل وإنما زادته. ذلك لأن تفسير كل من العقل والمادة بأنه مجموعة أحداث يدفعنا إلى التساؤل:

أحداث ماذا؟ إن الأحداث وصف، وإذن فالأحداث لابد أن تتعلق بأشياء، وإلا وقعت كلمة أحداث فى نفس الغموض الذى وقعت فيه كلمة "عقل" وكلمة "مادة" وتكون النتيجة هى ضم كلمة إلى قاموس الألفاظ الغامضة.

---

(١) العقل والمادة ص ٢٠٥ – ٢٠٩ ويرى الدكتور زكى نجيب محمود أن هذه هى آخر مراحل تطور فلسفة براتراند رسل.. أنظر كتاب فلسفتى كيف تطورت لبرتراند رسل والمقدمة.

إن الأحداث لابد أنها تتعلق بأشياء، فما هى هذه الأشياء؟

حاول الأقدمون تصنيفها إلى عقل ومادة، أو روح وجسم، والآن علم الطبيعة الحديث أثبت أن التفرقة بين هذه الأمور واهية حقا.

وإنهيار هذه التفرقة القديمة لا يزيل الغموض كما توهم رسل، وإنما هو يزيده بالتأكيد. ولابد إذن من الرجوع إلى فلسفة كانت حيث يثبت "الشئ فى ذاته" وليس أدل على ذلك من أن رسل نفسه يذهب إلى أنه لا يمكن الاستدلال على الأحداث التى تقع بشكل مستقل عن الإدراك وهذا ما جعله يقرر ان التسليم أمر ضرورى من الناحية العملية.

(إذ لو لم نسلم بهذه الأحداث لانهارت كل الأسس العلمية التى يمكن بها تبرير اعتقادنا فى وجود الموضوعات الفزيقية واستمرارها، كما تنهار أيضا إمكانية تبرير الفيزيقا).

وبذلك لا يقر رسل بالشك الكلى ويراه من الناحية العملية مجدبا..[1].

ولعل الحصيلة النهائية لنظرة رسل إلى كل من العقل والمادة هى ما لخصه فى أحد كتبه بقوله:

(إن العقل والروح – شأن المادة ليست سوى رموز أشياء غير معروفة)[2].

غيبية مفهوم المادة عند الفليسوف الملحد المعاصر فتجنشتين:[3].

يرى فتجنشتين أن العالم ينحل إلى "وقائع" وأن الأشياء هى المكونات المباشرة التى تتكون منها الوقائع، (والأشياء) عند فتجنشتين:

١ – بسيطة، لا تنقسم.

هى بسيطة فى غاية البساطة وهى لا تتصف بأى صفة من الصفات التى يمكن ملاحظتها، أنما تتصف بهذه الصفة أو تلك أثناء وجودها فى واقعة ما، لأن الصفات المادية: تنشأ أو ما تنشأ نتيجة لتشكل الأشياء فى واقعة ما.

---

(١) فلسفة برتراند رسل للدكتور محمد مهران ص ٩٩، ص ١٠٢، ص ١٠٣.

(٢) مجموعة "عالمنا المجنون" ص ٩٧.

(٣) لودفيج فيتجنشتين فيلسوف المنطقية الوصفية النمساوية ١٨٨٩ – ١٩٥١.

٢- ويترتب على ذلك أن الأشياء ثابتة لا تتغير. يقول فتجنشتين:

"الشئ وهو الثابت، وهو الموجود، أما المتحول المتغير فهو البناء المركب من أشياء، والتركيبة التى قوامها أشياء هى التى تشكل "الواقعة الذرية).

٣- ويترتب على ذلك أن الأشياء باقية إلى الأبد، لأنها بسيطة لا تنقسم إلى أجزاء، وما ينقسم إلى أجزاء هو ما يمكن فساده، أما مالا ينقسم فهو باق على حالة ثابت لا يتغير ولا يزول.

٤- ويترتب على ذلك أن الأشياء هى الأساس الأول الذى يقوم عليه العالم، أو هى كما عبر فتجنشتين تكون "جوهر العالم".

ولكن ما المقصود بمعنى الجوهر هنا؟

معناه "هو ذلك الثابت وراء كل تغير، والحامل الذى يحمل كل الصفات المتغيرة المتتابعة فى الوجود، أو هو "الشئ" الموجود بذاته الثابت الذى لا يتغير، وبالتالى فهو الذى يعد مبدأ أو أصلا لجميع الأشياء الموجودة".

الإيمان بالشئ ضرورة منطقية:

ويبرر فتجنشتين فكرته عن الجوهر.. على الرغم مما فيها من معنى ميتافيزيقى يتناقض مع اتجاهه التحليلى اللاميتافيزيقى بقوله:

"إنه إذا لم يكن للعالم جوهر فإن القول عن قضية ما أنها ذات معنى سيتوقف عندئذ على ان قضية أخرى صادقة".

أى أن معنى قضية ما فى حالة وجود جوهر ثابت للعالم الخارجى إنما يتوقف على المطابقة بين القضية من جهة، وذلك الجوهر الثابت من جهة أخرى، فيتحدد المعنى. أما إذا لم يكن هناك جوهر "ثابت يحدد معنى قضية معينة".. فلن يكون أمامنا عندئذ إلا أن نشتق معناها من قضية صادقة أخرى، وهذه من ثالثة، وتلك من رابعة، و.... إلى مالا نهاية.!

وعلى ذلك فوجود "الجوهر" الثابت أو الأشياء الثابتة هو المطلوب الذى يبرر لنا

الاستخدام الصحيح للغة، إذ أن ترابط الأشياء على نحو أو أخر فى واقعة ما هو ما يبرر لنا الحكم بصدق قضية أو كذب أخرى.

إذن ما هو هذا الشئ البسيط عند فتجنشتين وكيف يكون؟

أن فتجنشتين لا يعطينا أمثلة له ولا يوضح المقصود منه فى هذا الصدد.

يقول مالكولم: ذات مرة كنا نناقش (فتجنشتين وويلزدونى وأنا) رسالة فتجنشتين المنطقية الفلسفية، وقد سألت فتجنشتين عما إذا كان – أثناء "كتابة" الرسالة – قد فكر فى ذلك الوقت فى وجود شئ كمثل "الشئ البسيط" وكانت إجابته بأن تفكيره فى ذلك لم يكن إلا تفكيراً منطقيا.

ولذلك فإن ذلك الأمر لم يكن يعنيه كرجل منطقى، أى أن يقرر ما إذا كان هذا الشىء أو ذاك شيئا مركبا، إن ذلك عمل تجريبى محصن وعلى ذلك فهذه الأشياء عند فتجنشتين لم تكن إلا الأشياء بالمعنى المنطقى أو هى بسائط منطقية. وقد عبر رسل عن ذلك فى مقدمة الرسالة "لفتجنشتين" بقوله:

(إن فتجنشتين لم يذهب إلى أننا يمكننا أن نقول فعلا ما هو بسيط، أو أن نعرفه تجريبية لأنه ضرورة منطقية تتطلبها النظرية مثل الإلكترون).

ولو تعمقنا فى ذلك لوجدنا أنها ضرورة عملية يقصد بها إنقاذ هيكل القضايا من الوقوع فى حلقة مفرغة، وتفقد من ثم ما يبرر الحكم بصدق قضية ما أو كذبها[1].

وإذن فهذه البسائط "الأشياء" ليست هى المفردات الجزئية التى ندركها تجريبيا فى الواقع الخارجى.

وهنا يقول فتجنشتين (لا يسعنى إزاء الأشياء إلا أن أسميها وبهذا لا يسعنى إلا أن اتحدث عنها دون أن أستطيع تقرير وجودها).

إنها كما يقول الدكتور عزمى إسلام فى تلخيصه للنقد الذى وجه إلى فتجنشتين (مجرد افتراضات ميتافيزيقية)[2].

---

(١) لودفيج فتجنشتين للدكتور عزمى أسلام ص ١٢٢ – ١٣٠.

(٢) المصدر السابق ص ٣١.

المادة عند هانزريشنباخ:

يقول هانزريشنباخ – وهو ملحد.. (فالسؤال: ما المادة؟ أصبح الآن لا يمكن الإجابة عند بالتجارب الفيزيائية وحدها.

وإنما يحتاج إلى تحليل فلسفى للفيزياء.. وذلك لأن الإجابة عنه تتوقف على السؤال: ما المعرفة؟ ففى خلال القرن التاسع عشر استعيض عن التفكير الفلسفى الذى كان موجوداً فى مهد المذهب الذرى بالتحليل التجريبى، ولكن البحث وصل أخر الأمر إلى مرحلة من التعقيد تقتضى العودة إلى البحث الفلسفى)[1].

ولكن – حسب رأيه – بمعاونة البحث الفيزيائى.

يقول (لقد اتضح أن مفهوم الجوهر الجسمى المشابه للجوهر الملموس كما يظهر فى الأجسام التى نتعامل معها فى بيئتنا اليومية هو فكرة مقحمة من مجال التجربة الحسية.. وأن التجارب التى تتيحها الظواهر الذرية تحتم التخلى عن فكرة الجوهر الجسمى، وتقتضى إعادة النظر فى طريقة الوصف التى نصور بها الواقع الفيزيائى.

ولاختفاء الجوهر الجسمى يختفى طابع اللغة المرتكز على قيمتين[2]، ويتضح أن أسس المنطق واللغة إنما هى نتائج للتكيف مع البيئة البسيطة التى ولد فيها البشر.

والحق أن الفلسفة التأملية ذاتها لم تكشف أبدا عن قدرة على التخيل مماثلة لذلك العمق الذى أبدته الفلسف العلمية)[3].

---

(١) نشأة الفلسفة العلمية ص ١٥٨.

(٢) يعنى فى مجالنا هذا الموجات، والجزيئات، ويقترح امرا ثالثا "اللامحدد" الخ، أنظر نشأة الفلسفة العلمية ١٦٩.

(٣) المصدر السابق ص ١٧٠.

العلم التجريبى يرغم الإلحاد المعاصر على التخلى عن "المادية"
لكن إلى ... أين .....؟

يلخص كارل بيرسن رأيه فى التغيير الشامل الذى يطرأ على علم الفيزياء بقوله: (على حين أنه خلال الجزء الأكبر من القرن التاسع عشر كان مفهوم (المادة) هو الذى يعد أساسيا فى علم الفيزياء، وكانت لهذه المادة خاصية غير مألوفة تسمى بالكهرباء، فإنه يبدو اليوم أن الكهرباء ينبغى أن تعد اهم من المادة، بمعنى أن ما كنا نعده مادة أساسية ينبغى أن يتصور الآن على أنه شكل من أشكال ظواهر كهربائية عظيمة التعقيد).

إن بيرسن وجد فى هذه التطورات الفيزيائية الحديثة تأييدا لرأيه القائل: إن العلم لا يهتم إلا باختراع أنموذج تصورى يصف به مجرى انطباعاتنا الحسية ولآ شأن له بتقديم تفسير للعالم المدرك حسيا بالفعل. ففكرة الألكترون، التى أصبحت هى الفكرة الأساسية فى الفيزياء فى ذلك العهد، ما هى إلا تركيب ذهنى يستحيل أن يكون موضوعا مباشرا للإدراك الحسى، شأنها شأن سائر المفاهيم التى أدخلتها الكشوف الحديثة على علم الفيزياء.

إن بيرسن ينظر إلى المادة على أنها بدورها مفهوم تصورى أو ذهنى، يستخدم فى وصف انطباعاتنا الحسية، ولا يطابقه وجوده فعلى فى الخارج.

أما المادة التى يشيع وصفها بأنها علة الانطباعات الحسية فهى فى رأيه كيان ميتافيزيقى، ومن الشائع أن توصف المادة بأنها صلبة وغير قابلة للاختراق. وهاتان

بالفعل صفتان تتميز بهما مجموعة كبيرة من الانطباعات الحسية المسماة بالمادية، غير أنهما لا تنتميان بالضرورة إلى كل أفراد هذه الفئة:

فالصلابة وعدم القابلية للاختراق أمران نسبيان، ولا يدلان على صفة مطلقة تنتمى إلى عالم الواقع.

أما القول بأن المادة تتميز بالدوام والبقاء، فهو فى رأى بيرسن قد يكون راجعا إلى استمرار الانطباعات الحسية لا إلى استمرار شئ غير مدرك من وراء هذه الانطباعات. وهو يضرب فى هذا الصدد مثلا بالموجة:

فعندما نرى الموجة تتحرك فى البحر، تتكون لدينا عنها انطباعات حسية متماثلة ومستمرة، بحيث يبدو لنا أن "نفس" الموجة هى التى تتحرك، وهى التى تقترب منا، ومع ذلك فلو ألقينا فيها قطعة من الفلين لارتفعت وانخفضت فى نفس الموقع عندما تمر الموجة بها، ولما انتقلت معها، مما يثبت أن الموجة ليست هى نفسها التى تتحرك. وهكذا قد تظل الموجة محتفظة بشكلها وتتكون لدينا عنها نفس المجموعة من الانطباعات الحسية، ومع ذلك يكون أساسها أو مادتها متغيرا على الدوام. وبعبارة أخرى فإن تماثل الانطباعات الحسية أن بيرسن يحاول هنا أن يعزل العلم التجريبى عن المذهب المادى بعد أن تحالفا زمنا طويلا، لا لشئ إلا لما بدا من أن هذا التحالف لو استمر بعد ظهور الفيزياء الحديثة سوف يقدم دعما علميا للنظر إلى المادة على أنها – كما يقول بيرسن – (كيان ميتافيزيقى).

وإذا كانت هذه النظرة لا تزعج العلماء التجريبيين، ولا تزعج أولا ينبغى أن تزعج الماديين الملتزمين "بالعلم التجريبى" فهى من غير شك تزعج أولئك الذين وجدوا فى تحالف العلم مع المادية دعما لنزعتهم الإلحادية، أما وقد صار هذا التحالف خطرا على الالحاد – بعد الفيزياء الحديثة – فإن إخلاصهم "للإلحاد"

- وهو يأتى فى المقام لكونه "إرادة" محضة – يجعلهم – كما فعل بيرسن
- يفصلون "العلم" عن "المادية" – المادية فى وضعها الذى اضطرها العلم إليه.
- فيهاجمون "المادية" لأنها فى رأى بيرسن (تسير فى نفس الطريق الذى تسير فيه

المذاهب الميتافيزيقية واللاهوتية...) مدعين أنها بذلك تصبح (مضادة للروح العلمية السليمة...)[1].

وهنا نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نقول لبيرسن وأمثاله:

إنه إذا انفصل العلم التجريبى عن المادية...

وانفصل فى نفس الوقت عن الروحية، أو عن الدين، فماذا يبقى له إلا أن يكون هلوسة ذاتية، لا صلة لها بالواقع على أى وجه يكون؟

وهذا ما جعل الدكتور فؤاد زكريا، يقول فى تعليقه على بيرسن:

(إن مذهبه يرتكز على المذهب الظاهرى القائل بأن الموضوعات الأولية المؤكدة للمعرفة هى "الانطباعات" المباشرة فى التجربة الحسية الخارجية، أو فى التجربة الاستبطانية الداخلية، أما ما نسميه بالأشياء أو الجواهر فما هى إلا إضافات ميتافيزيقة لا تبررها تجاربنا...).

ويقول: (ولا سبيل لأصحاب هذا المذهب – مهما بذلوا من محاولات – إلى أن يتخلصوا من شبح الذات الوحيد الذى يهددهم على الدوام.. والحق أن بيرسن على خلاف كثير من القائلين بهذا النوع من المذهب الظاهرى لم يحاول أن ينفى عن نفسه شبهة الذاتية المطلقة).

وهكذا.. يتردى فى المثالية الذاتية هؤلاء المفكرون... (الذين يتصورن فى بداية الأمر أنهم هم القادرون على محاربة المثالية..)[2].

وهذا بلا شك يرتكس بالعلم وبالمادية معا إلى نوع مع اللاأدرية.

يقول الدكتور ليكونت دى نوى:

---

(١) تراث الإنسانية، العدد ١٢ المجلد ٣ ص ٩٢٧.

(٢) تراث الإنسانية العدد ١٢ المجلد ٣ ص ٩٢٩.

(إن العقل الذى اتجه إلى الشك.. يقبل الآن بدون تردد الانقلاب الذى حصل على النظريات الفيزيائية فهو يعترف بوجود فراغ غير مدرك تسبح فيه الألكترونات.. ويعترف بأن هذا الإلكترون ما هو إلا موجة احتمال،

ويعترف بوجود جزئيات كالنيترونات.

ويعترف بوجود الانتينترونات التى افترض وجودها لأسباب تناظرية رياضية بحته[1].

(١) ذكرنا من قبل أنه تم افتراض هذه الانتينترونات لا لشئ إلا لانقاذ قانون تكافؤ الطاقة والمادة وعدم انعدامها.

obeikandl.com